كهف شقبا

تنفيذ | دعم

الرؤيا الفلسطينية PALESTINIAN VISION | HEKS

إعداد: أحمد حنيطي

www.palvision.ps

2016

صور: سامر الشريف

الحضارة النطوفية - كهف شقبا

يقسّم التاريخ إلى مرحلتين رئيسيتين وهما، مرحلة ما قبل التاريخ الميلادي ومرحلة التاريخ الميلادي، وداخل كل مرحلة يتم تقسيمه إلى مراحل أخرى، في المرحلة ما قبل التاريخ الميلادي تقسم إلى عدة مراحل، وقد سميت كل مرحلة حسب نوع الأدوات التي كان يستخدمها الانسان في ذلك العصر، فمثلاً المرحلة الحجرية نسبة إلى استخدام الانسان الحجر بشكل أساسي في حياته، وهذا ينطبق أيضاً على المرحلة البرونزية والنحاسية وما إلى ذلك، ونتيجة لطول فترة المرحلة في العصر الحجري التي تمتد مئات آلاف السنين، تم تقسيمها إلى مراحل، وهي: العصر الحجري القديم، العصر الحجري المتوسط، والعصر الحجري الحديث. وكان لفلسطين أهمية في كل تلك العصور. تتميّز فلسطين بوجود العديد من الشواهد والمعالم الأثرية التي تدل على حياة الانسان في مختلف العصور، وقد يكون موقع فلسطين المتوسط من مختلف الحضارات القديمة والتأثّر والتأثير بتلك الحضارات له الأثر الكبير في هذا التميّز. حيث تدلّ الشواهد والمعالم الأثرية التي اكتشفت في فلسطين، إلى وجود الإنسان منذ أقدم العصور، لهذا كانت فلسطين حقلاً خصباً للاكتشافات الأثرية، وفي الاستدلال المعرفي حول الحضارات القديمة. «إنّ فحص الهياكل العظمية والجماجم البشرية التي وجدت في كهوف الكرمل والناصرة أثبتت أن أصحابها كانوا أقرب شكلاً إلى الغوريلا منتصبا منه إلى الانسان الحالي» (الدباغ 2002: 354)، إن هذه الشواهد الأثريّة وغيرها جعلت الباحثون الأثريون والانثروبولوجيون يتفقون «على أنّ الانسان الذي عاش على مقربة من كهوف الطابون في جبل الكرمل بفلسطين كان حلقة وصل بين الانسان البدائي والانسان الحالي. وخصوصاً أنّه يمكن مقارنة هذا الانسان أيضا من الناحية التشريحية بما نسميه الآن الانسان العاقل» (الدباغ 2002: 354)، ونتيجة لعملية التطوّر ظهر في فلسطين الانسان الهوموراكتوس

ثم الانسان النياندرتالي ثم الانسان العاقل «إن من أظهر معالم العصر الحجري القديم الأعلى، أنّه قد ظهر في خلاله على أرض فلسطين تغيير كان من نوع خاص، بحيث أن نتائجه الأولى تتحدى الإدراك، ففي مطلعه اختفى 'النياندرتال' وظهر نوع جديد من البشر، تطور على ما يبدو من النياندرتال الفلسطيني، وهذا النوع هو ما أطلق عليه 'الانسان العاقل' أو 'الانسان الفلسطيني'«. (الخيري 2003: 32).

الثقافة النطوفية

سميت هذه الثقافة بهذا الاسم نسبة إلى وادي النطوف الذي يقع غرب محافظة رام الله، فقد تم العثور في كهف شقبا على شواهد ومعالم أثريّة لم تكن معروفة من قبل، فسميت المرحلة التي أرجعت إليها تلك الشواهد والمعالم باسم الموقع الذي اكتُشفت فيه، وهذه العمليّة -تسمية المعالم الأثرية باسم الموقع الذي وجدت فيه- متداول في علم الآثار، حيث يقول الشواف أن «الاتجاه اليوم يفضّل تبني تسميات تعتمد على المواقع التي تم التنقيب فيها» (الشواف 2006: 47). ولهذا سُميت ثقافات العصر الحجري الأوسط و'لوفالوا' و'موستيريان' استناداً إلى مواقع 'لوفالوا' و'لوموستيه' في فرنسا.

يرجع تاريخ الثقافة النطوفية إلى العصر الحجري الوسيط، «وقد سميت الفترة الانتقالية بين العصر الحجري القديم والحديث بالعصر الحجري الوسيط، ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالي عام 12000 قبل الميلاد، وتتمثّل هذه الحضارة في بلادنا فلسطين ب «الحضارة النطوفية» التي سُميت باسم وادي النطوف شمالي غرب القدس. (الدبش 2003: 9-10)، فيما يحدد الشواف الثقافة النطوفية بالفترة (12300-10000) ق.م، وهي «تشمل المراكز التي عرفت أقدم آثار الاستقرار والاقامة في منازل مستديرة ثابتة ونصف مطمورة تم كشفها في النقب الفلسطيني وعلى الفرات الأوسط، كما شكّلت تلك المساكن أولى القرى الثابتة مثل الملّاحة في وادي الأردن وأبو هريرة ومريبط على الفرات الأوسط السوري» (الشواف 2006: 46-47).

وقد تميزت الثقافة النطوفية عن سابقاتها، وذلك حسب تشايلد «أنها كانت ممثلة الانتقال، من جمع الطعام إلى إنتاجه» (الدبش 2003: 10)، يقول الدباغ أنّ العصر الوسيط «تميّز في استقرار الانسان في الكهوف والمغاور، وتمكن من صقل أدواته الحجرية وتصغير حجمها بحيث أصبحت أكثر فعالية بالنسبة لأغراضه. ... كما تدل الشواهد الأثريّة التي اكتشفت في فلسطين أنّ الإنسان بدأ يدجّن بعض

الحيوانات في هذا العصر مثل الكلاب، واستمر الانسان في هذا العصر في مزاولة الصيد، كما تدلّ الشواهد في وادي خريطون في بيت لحم وفي وادي النطوف في قرية شقبا.» (الدباغ 2002: 357). وبهذا تكون الثقافة النطوفية هي المؤسسة لمرحلة العصر الحجري الحديث في الشرق الأوسط، والذي شهد ثورة في أدوات ونمط الانتاج، حيث «إن 'ثورة العصر الحجري الحديث' أو بالأحرى ذروتها، تتّسم قبل كلّ شيء بظهور أهم ثلاثة عناصر في حياة الناس: الزراعة وتربية الماشية (كأساس للاقتصاد). والمستوطنات الدائمة، وصناعة الفخار. إنّ الانتقال من القنص وصيد السمك وجمع النباتات، أي تلقي منتجات الطبيعة الجاهزة إلى انتاج الطعام -الزراعة وتربية الماشية- والتبدلات المرتبطة بهذا، حوّلت بوضوح، أكثر من أي شيء آخر، ظروف الحياة البشريّة وغيّرت بيئة الانسان الطبيعيّة وبيولوجيّته، وغيّرت كل كوكبنا إلى درجة معينة» (الدبش 2003: 9).

وقد انعكست هذه الثورة على أدوات الانتاج، فقد أصبحت أكثر ملائمة للاستعمال

المراكز النطوفية على الشاطئ الكنعاني
مواقع القرى، النطوفية الأولى
(10000 - 7000) ق.م

الجديد لها في الزراعة، حيث تميّزت الثقافة والحضارة النطوفية خلال العصر الحجري السطحي «بمنجل الحصاد المصنوع من الخشب، وعظام الحيوانات والأدوات الحجرية التي كانت على شكل الهلال والتي صارت تعرف لدى علماء الآثار بالأدوات الحجرية الهلالية» (وزارة التخطيط والتعاون الدولي 1999: 24). وقد تمثّلت أهم مواقع التمركز الحضاري في فلسطين والتي تعود إلى الثقافة النطوفية كما دلّت المكتشفات الأثريّة هي: كبارا، أورين، شقبة، عرق الأحمر، وادي الزويتينية، وكذلك المستويات القاعدية في أريحا والبيضا وعين الملّاحة. وفي لبنان مثّلتها مكتشفات مغارة جعيتا

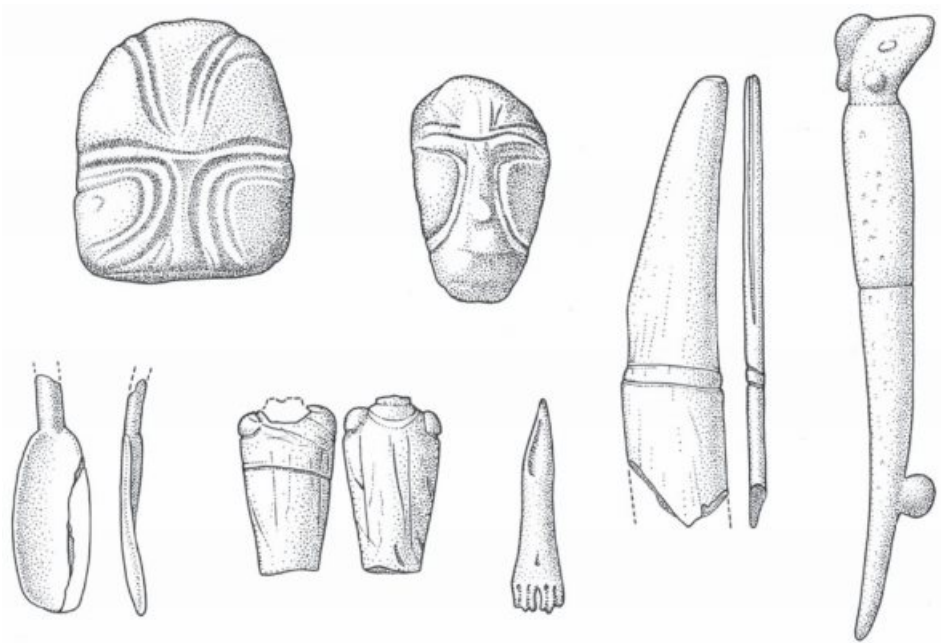

وجبيل. وفي سوريا والعراق مثّلتها: مريبط، واحة دمشق، أسود، ورماد، وبوقراص، وتدمر، وجرمو، ودارية، وعلي كوش، وتل حسونة، والعبيد. (الشواف 2006: 51-52). ويرجع الدبش حدوث التحوّل نحو الاستقرار ومرحلة الانتاج في العصر الحجري الأوسط (النطوفية) إلى «اعتدال الجو، وملائمة مناطقنا لحياة الاستقرار، مكّنت الناس من الوصول إلى بعض أسباب التقدم وجعلتهم يتقدمون في بعض مراحل الثقافة، وبالأخص عندما خلّف الانسان وراءه حياته كجامع للغذاء، وأصبح منتجا له، وأخذت تستقر جماعات منه على مقربة من موارد المياه، يزرعون الأرض ويستأنسون بعض الحيوانات» (الدبش 2003: 8).

يتحدّث الدبش عن الفنون النطوفية الأولى في فلسطين، «وهي دمى حيوانات

صغيرة، مصنوعة إمّا من الطين أو الحجر أو من قرن الغزال، بعضها واقعي، وأخرى مختزلة ومبسّطة، نذكر منها قبضان مناجل عظمية تنتهي على شكل رأس غزال وجدت في السويّة الناطوفية في مغارة الكبارا ووادي فلاح، ومن الأعمال التي صوّرت البشر لدينا نماذج صغيرة، كالرأس المبسّط المنحوت على لوحة حجريّة من موقع الواد، ودمية بلا رأس ولا أطراف من عين الملاحة، وتمثال صغير وجد في عين صخري بفلسطين، يصوّر شخصين رجلا وامرأة في احتضان حميم... إضافة إلى ذلك فقد وجدت في معظم المواقع أدوات زينة كالخرز والأطواق أو الحلق المصنوع من الصدف والأسنان المثقوبة وزخارف أخرى على شكل طيور أتت من موقع زين بفلسطين». (الدبش 2003: 11-12).

كهف شقبا

قامت الحكومة البريطانية في فترة الانتداب البريطاني بإرسال البعثات الأثريّة إلى فلسطين بهدف مسح المواقع الأثريّة فيها، ومن المواقع الأثريّة التي نقب فيها علماء الآثار البريطانيون في العشرينات كهف شقبا، بدأت التنقيبات في العام 1924 على يد العالم أ. ماللون، ثم تلتها حفريات منقبة الآثار الأمريكية دورثي جارود في العام 1928.

يقع الكهف على الضفة الشمالية لوادي النطوف، ويتكوّن الكهف من حقبتي ما قبل التاريخ وهي العصر الحجري القديم وبالتحديد حقبة لوفالو. موستيريان العليا (وهي الطبقة د)، ومعلم أثريّ رئيسيّ يمثل الحضارة النطوفية (الطبقة ب)، مع برهان على استخدامها منذ العصر البرونزي المبكّر الأوّل وحتى الوقت الحاضر. مما يدلّ على استقرار الانسان في المغارة خلال فترات كبيرة (وزارة السياحة والآثار الفلسطينية 2009: 58؛ وزارة التخطيط والتعاون الدولي 1999: 116).

تكونت المكتشفات من البقايا الحجرية من طبقة حقبة (لوفالو. موستيريان العليا) من أسلحة وشظايا مسننّة وأدوات دائرية وفؤوس يدوية ومثاقب وكمية كبيرة من المكاشط الجانبية، ورقائق مهذبة، ومن بقايا حيوانيّة كانت في حالة سيئة نتيجة التحلّل (وزارة السياحة والآثار الفلسطينية 2009: 59؛ وزارة التخطيط والتعاون الدولي 1999: 116).

أما المكتشفات التي لم تكن معروفة للمنقبة جارودي، سمتها باسم المنطقة، فقد تشكّلت من «تربة سوداء رمادية تضم رفات عدد من الجثث البشرية المدفونة فيه يعود معظمها إلى الأطفال، وذلك بالقرب من المنطقة السكنيّة. أمّا سياق الأدوات الحجرية التي كانت غارود أول من وجدها في (الطبقة ب) فيتألف من أهلّة وأدوات صوانية دقيقة جداً وشفرات المناجل وصناعات غنيّة من العظام تتضمن أسلحة وأدوات حادة وإبرا. واتصفت جماعة النطوفيين الذين سكنوا شقبا

بممارسة نشاطات صيد مجتمعة بطريقة تعتمد نموذج معيشية شبه مستقر. أما معظم حجارة الصوان فهي حجارة صغيرة جداً استخدمت في الصيد كرؤوس للرماح ورؤوس للحراب. كما وجدت أيضاً شفرات مناجل مصنوعة من الصوان كانت تستخدم في حصاد الحبوب البريّة والقش، وتدلّ البقايا النطوفية على طريقة إنتاج تعتمد على الصيد والجمع المكثّف للحبوب البريّة ومن خلال مجموعة متعاونة لمجموعات ما قبل عصر الزراعة.» (وزارة السياحة والآثار الفلسطينية 2009: 59)

يتكون الكهف من حجرة رئيسية (قطرها ثمانية عشرة متراً) في سقفها مدخنتان وثلاث حجرات جانبية، «ويبدو أن قطرات الماء المتساقطة من سقف المغارة كانت مشبعة بالعناصر المعدنية (مثل كربونات الكالسيوم) مما زاد من صلابة السطح وحوّله إلى بريشة، غير أن بعض أجزاء المغارة أصابها الضرر نتيجة لحتها وتآكلها بفعل المياه» (وزارة التخطيط والتعاون الدولي 1999: 115).

الكهف في الوقت الحالي والتحديات

نتيجة لما يحتله الكهف كموقع نموذجي للحضارة النطوفية المعروفة على المستوى العالمي، ولأهمية ما يمثله من ثورة في عملية الانتقال من العصر الحجري القديم إلى الحديث، فقد أدرجته وزارة السياحة والآثار الفلسطينية على قائمة مواقع التراث الثقافي والطبيعي ذات القيمة العلميّة المتميّزة في العام 1999، كما قامت دائرة الآثار في جامعة بيرزيت بعمل حفريات في الموقع، ورغم الأهمية التي يحتلها الكهف إلا أنه يتعرّض للاهمال والعبث الدائم.

أكثر المخاطر حدّة التي يتعرض لها، كما يعبر عن ذلك رئيس المجلس قرية شقبا هي الكسارة الإسرائيلية القريبة من الموقع، يقول حمدان طه: «يتهدده [الكهف] التخريب من قبل الاحتلال الإسرائيلي من خلال الكسارة التي لا تبعد حوالي 500 متر عنه، فمن المعروف أن الكهف تكون من نشاط

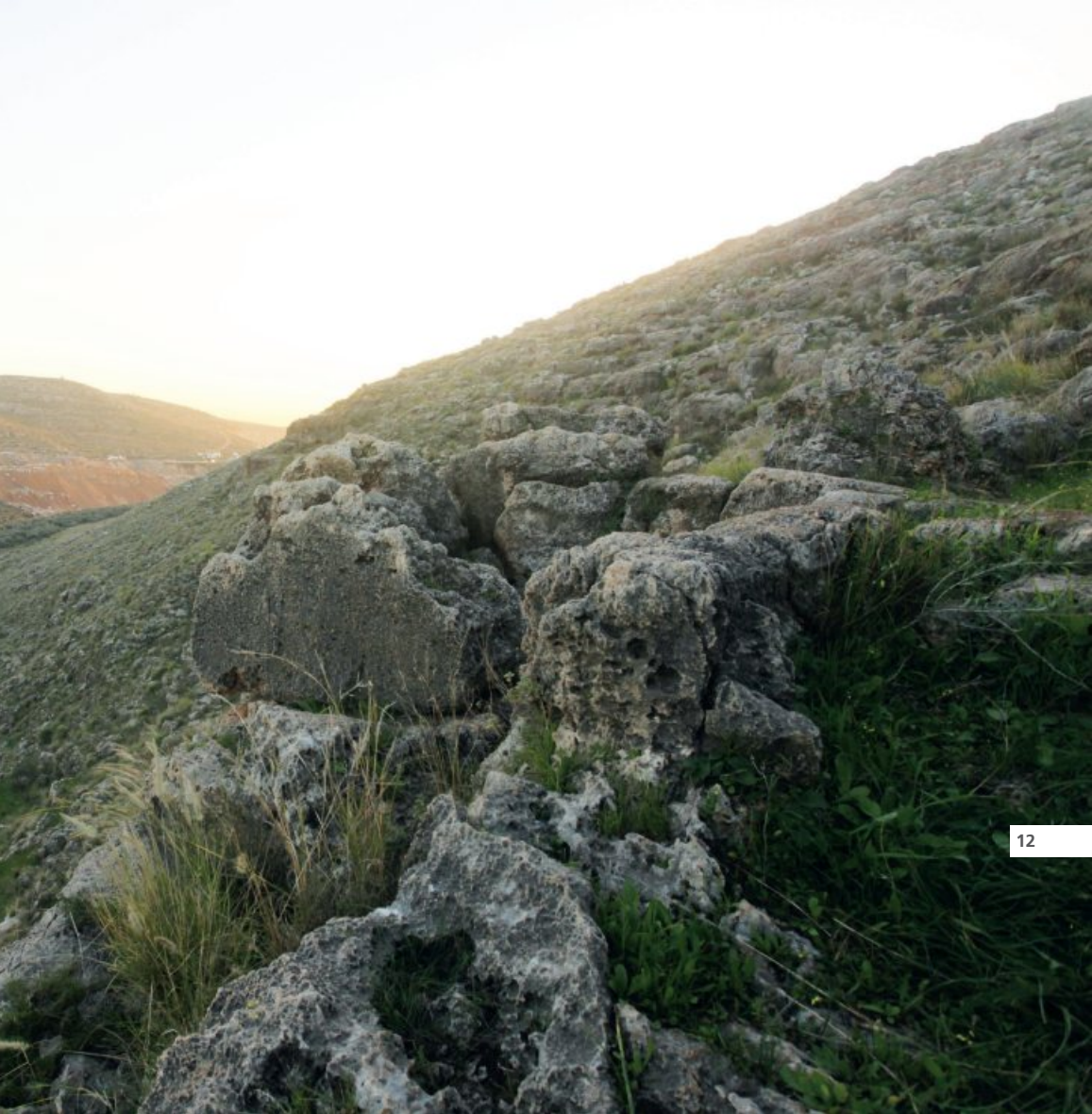

جيولوجي كارستي بشكل طبيعي، وتكرار الانفجارات التي تحدثها الكسارة تؤثر على حجارته ووجوده، بالإضافة إلى شق الطرق الالتفافية التي ساهمت بتخريب الجبال المحيطة وتشويه المنظر الثقافي في هذا الموقع.[1]" ويقول الشيخ حمدان أنه تم بيع أرض لأحد المستثمرين الفلسطينيين بالقرب من الكهف لاستخدامها كمحجر[2].

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ وجود الكهف في المناطق المصنفة ج في اتفاقيات أوسلو 2 يحدّ من القيام بأية تدخلات مادية في الموقع دون الحصول على تصريح وترخيص من الإدارة المدنية الإسرائيلية.

في الجانب الفلسطيني، تعتبر الأرض المحيطة بالكهف ملكيّة خاصة، تعود ملكيّتها لأحد سكان قرية شقبا، وهي الآن مزروعة بأشجار الزيتون، حيث كانت جميع الأراضي

1. خموس، رنا. «كهف شقبا إرث انساني وتعاقب حضاري عالمي». أصداء برس (19 كانون الأول 2013).
http://asdaa-press.blogspot.com/2013/12/456.html#.Vqz9UtJ95dg
2. مقابلة مع الشيخ حمدان، أجريت المقابلة في 17 كانون الثاني 2016.

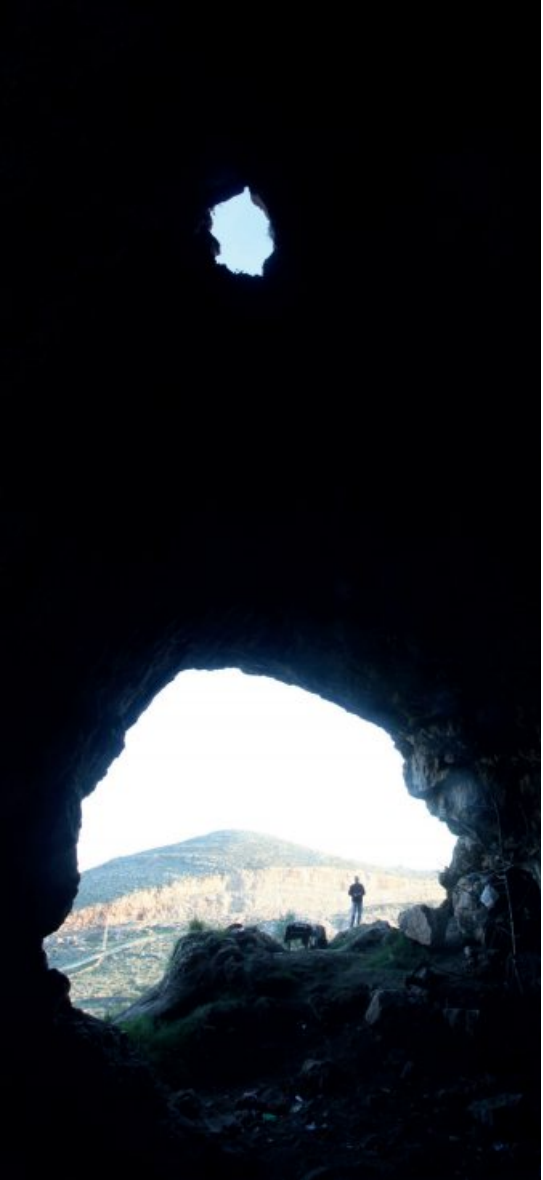

المحيطة بالكهف في الستينات والسبعينات تزرع بالقمح والشعير. ولكن الكهف يعاني من الإهمال الشديد من قبل المؤسسات الحكومية والأهلية وكذلك سكان المنطقة، حيث يعتبر الكهف مأوى للحيوانات البريّة، وفي زيارة للكهف بتاريخ 10 كانون ثاني 2016، بهدف إعداد هذه الورقة، تم العثور على ألواح خشبيّة وفراش وأدوات القهوة والشاي وكشّاف، حيث يستخدم أحد سكان القرية الكهف كزريبة تعزيب للأغنام.

إنّ على المؤسسات الحكومية والأهليّة، العمل على تأهيل الكهف ليكون مزاراً للباحثين وطلاب الجامعات والمدارس، وتأهيل المكان بما يتناسب مع مكانته التاريخية والسياحية بدون التأثير على المشهد الطبيعي الأصلي للموقع، بإنشاء المرافق اللازمة من شق طريق مناسبة، والحفاظ على المنطقة الأثريّة من التخريب. ووضع ارشادات ويافطات تثقيفية عن تاريخ المكان مما يعطيه هويته الحضارية التي يمثلها.

المراجع

- الدباغ، مصطفى مراد.2002. بلادنا فلسطين. ج 1. كفرقرع: دار الهدى للنشر والتوزيع.
- الدبش، أحمد صبري. «فلسطين أصل الحضارة». مجلة صامد الاقتصادي. (شباط –آذار 2003).
- الخيري، فيصل صالح. «أقدم من سكن فلسطين». مجلة صامد الاقتصادي. (شباط –آذار 2003).
- خموس، رنا. «كهف شقبا إرث انساني وتعاقب حضاري عالمي». أصداء برس (19 كانون الأول 2013).

  http://asdaa-press.blogspot.com/2013/12/456.html#.Vqz9UtJ95dg
- الشواف، قاسم. 2006. فلسطين التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ حتى الخلافة العباسية. بيروت: دار الساقي.
- وزارة السياحة والآثار الفلسطينية. قائمة مواقع التراث الثقافي والطبيعي ذات القيمة العالمية المتميزة في فلسطين. رام الله. (تشرين الأول 2009).
- المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والاعمار (بكدار). 2002. المعالم الأثرية في فلسطين. القدس: دائرة المساعدات التقنية والتدريب.
- وزارة التخطيط والتعاون الدولي الفلسطيني. معالم التراث الثقافي والحضاري المهدد في محافظات الضفة الغربية، المخطط الطارئ لحماية المصادر الطبيعية. رام الله. (شباط 1999).

ملاحظتان:

- الخريطة بعنوان: «المراكز النطوفية على الشاطئ الكنعاني: مواقع القرى النطوفية الأولى (10000-7000) ق.م مأخوذة من: الشواف، قاسم. 2006. فلسطين التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ حتى الخلافة العباسية. بيروت: دار الساقي. ص 52.
- اللوحة التي تتضمن اشكال في النص "أثار فنية من العصر النطوفي"، مأخوذة من موقع الموسوعة العربية

http://www.arab-ency.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AD%D9%88%D8%AB/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B7%D9%88%D9%81%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1%D8%A9

نروي

الأرض والحكاية

يهدف مشروع نروي للحفاظ على الهوية والإرث وطرق العيش في المجتمعات الفلسطينيّة. حيث نسعى من خلال هذا المشروع إلى إحياء ستة مناطق أثريّة وطبيعيّة حول محافظة رام الله، والتي تشكّل جزء هام من الهوية الفلسطينية التاريخية والإرث الحضاري الفلسطيني. ينفذ المشروع مؤسسة الرؤيا الفلسطينية، بالشراكة مع وزارة السياحة الفلسطينية وبتمويل من مؤسسة HEKS مجلس المساعدات الكنسي السويسري.

مؤسسة الرؤيا الفلسطينية

ش. الرشيد, عمارة الغرفة التجارية الطابق الخامس, القدس

02-6285080 | info@palvision.ps | www.palvision.ps